وقد أمرني سبحانه أن أكون من المسلمين له حَقّاً وصدقاً.

وفي حياتنا نجد أن صديقاً يرسل إلى صديقه عاملاً من عنده ليصلح شيئاً ، فهو يأخذ الأجر من المرسل ، لا من المرسل إليه ، وهذا أمر منطقي وطبيعي.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

﴿ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ[1] وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ[2] وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾

وكأن الأمر الذي وقع من الحق سبحانه نتيجة عدائهم للإيمان كان من الممكن أن يشمله ؛ لأنه لا يقال: نجَّيتُك من كذا إلا إذا كان الأمر الذي نجيتك منه ، توشك أن تقع فيه ، وكان هذا بالفعل هو الحال مع الطوفان ، فالحق سبحانه يقول:

﴿ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ[3] ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا .. ﴿١٢﴾ ﴾

[القمر]

---

(١) الفلك: السفينة.

(٢) خلفه يخلفه من باب نصر : جاء بعده فصار مكانه - خَلْفاً وخلافةً وخلفه خلفاً : صار خَلْفَه قال تعالى : ﴿ قال بئسما خلفتموني من بعدي .. ﴿١٥٠﴾ ﴾ [الأعراف] والخلف : القرن من الناس بعد القرن ، أي الجيل بعد الجيل ، والخلف الولد الصالح أو غير الصالح . قال تعالى : ﴿ فخلف من بعدهم خلفٌ .. ﴿١٦٩﴾ ﴾ [الأعراف] والخَلَف بالفتح : البعض والبدل والولد الصالح أو الولد غير الصالح . والخليفة من يخلف غيره ، أو ينوب عنه ، قال تعالى : ﴿ إني جاعلٌ في الأرض خليفةً .. ﴿٣٠﴾ ﴾ [البقرة] ، وخليفة جمعها خلفاء وخلائف يقول تعالى : ﴿ واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح .. ﴿٦٩﴾ ﴾ [الأعراف] وقال : ﴿ وهو الذي جعلكم خلائف الأرض .. ﴿١٦٥﴾ ﴾ [الأنعام] . [القاموس القويم - بتصرف].

(٣) ماء منهمر : مطر غزير .

ومن المتوقع أن تشرب الأرض ماء المطر ، لكن الذى حدث أن المطر انهمر من السماء والأرض أيضاً تفجَّرتْ بالماء ؛ ولذلك نجد الحق سبحانه وتعالى يقول:

﴿ فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ (١٢) ﴾ [القمر]

أى: أن ذلك الأمر كان مقدَّراً ؛ حتى لا يقولن أحد: إن هذه المسألة ظاهرة طبيعية.

لا إنه أمر مُقدَّر ، وقد كانت السفينة موجودة بصناعة من نوح عليه السلام ؛ لأن الحق سبحانه قد أمره بذلك فى قوله تعالى فى سورة هود:

﴿ وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا .. (٣٧) ﴾ [هود]

ويقول الحق سبحانه فى الآية التى بعدها:

﴿ وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ (١) مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ (٣٨) ﴾ [هود]

ويركب نوح - عليه السلام - السفينة ، ويركب معه من آمن بالله تعالى ، وما حملوا معهم من الطير والحيوان من كُلٍّ نوع اثنين ذكراً وأنثى.

وقول الحق سبحانه:

﴿ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ .. (٧٣) ﴾ [يونس]

يوحى أن الذى صعد إلى السفينة هم العقلاء من البشر ، فكيف نفهم مسألة صعود الحيوانات والطيور إلى السفينة ؟

---

(١) ملأ : جماعة .

نقول: إن الأصل فى وجود هذه الحيوانات وتلك الطيور أنها مُسخَّرة لخدمة الإنسان ، وكان لا بد أن توجد فى السفينة ؛ لأنها ككائنات مسخَّرة تسبِّح الله [1] ، وتعبد الحق سبحانه ، فكيف يكون علمها فوق علم العقلاء الذين كفر بعضهم ، ثم أليس من الكائنات المسخَّرة ذلك الغراب الذى علَّم «قابيل» كيف يوارى سوأة أخيه [2]؟! إنه طائر ، لكنه علم ما لم يعلمه الإنسان !

والحق سبحانه هو القائل:

﴿ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِى سَوْءَةَ أَخِيهِ .. (٣١) ﴾ [المائدة]

ثم يقول الحق سبحانه فى الآية التى نحن بصددها الآن:

﴿ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِى الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ (٧٣) ﴾ [يونس]

وكلمة «الفُلْك» من الألفاظ التى تطلق على المفرد، وتطلق على الجماعة.

وقول الحق سبحانه: ﴿فَنَجَّيْنَاهُ﴾ نعلم منه أن الفعل من الله تعالى ، وهو سبحانه حين يتحدث عن أى فعل له ، فالكلام عن الفعل يأتى مثل قوله سبحانه:

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ [3] وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٩) ﴾ [الحجر]

---

(١) يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا (٤٤) ﴾ [الإسراء] .

(٢) يوارى سوأة أخيه: يخفى جسد أخيه «هابيل» الذى قتله أخوه بغير حق . أى : يدفنه .

(٣) الذِّكْر : القرآن الكريم . قال تعالى : ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (٤٤) ﴾ [النحل] .

ولكنه حين يتحدث عن ذاته ، فهو يأتى بكلمة تؤكد الوحدانية وتكون بضمير الإفراد مثل: ﴿إِنَّنِى أَنَا اللَّهُ .. (١٤)﴾ [طه]

وهنا يقول الحق سبحانه:

﴿فَنَجَّيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِى الْفُلْكِ ..(٧٣)﴾ [يونس]

كلمة «أنجى» للتعدية ، وكلمة «نَجَّى» تدل على أن هناك معالجة شديدة للإنجاء ، وعلى أن الفعل يتكرر.

وقول الحق سبحانه:

﴿وَجَعَلْنَاهُمْ خَلائِفَ[1] .. (٧٣)﴾ [يونس]

تعنى: أن الخليفة هو من يجىء بعد سابق ، وكلمة «الخليفة» تأتى مرة للأعلى ، مثل الحال هنا حيث جعل الصالح خليفة للصالح ، فبعد أن أنجى الله سبحانه العناصر المؤمنة فى السفينة ، أغرق الباقين.

إذن: فالصالحون على ظهر السفينة أنجبوا الصالحين من بعدهم.

ومرة تأتى كلمة «الخليفة» للأقل ، مثل قول الحق سبحانه:

﴿فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ ..(٥٩)﴾ [مريم]

فهنا تكون كلمة الخليفة موحية بالمكانة الأقل ، وهناك معيار وضعه الحق سبحانه لتقييم الخليفة ، هو قول الحق سبحانه:

﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلائِفَ فِى الأَرْضِ مِن بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (١٤)﴾ [يونس]

---

(١) خلائف: جمع خليفة وهو الذى يخلف من سبقه. وتجمع أيضاً على «خلفاء». قال تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ .. (٦٩)﴾ [الأعراف].

ولأن الإنسان مخيَّر بين الإيمان والكفر ، فسوف يَلْقَى مكانته على ضوء ما يختار.

ويقول الحق سبحانه:

﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا .. (٥٥) ﴾ [النور]

إذن: فالخليفة إما أن يكون خليفة لصالح ، وإما أن يكون صالحاً يَخْلُفُ فاسداً.

وهنا يقول الحق سبحانه:

﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا .. (٧٣) ﴾ [يونس]

والآيات - كما قلنا من قبل - إما آيات الاعتبار التى تهدى إلى الإيمان بالقوة الخالقة ، وهى آيات الكون كلها ، فكل شيء فى الكون يدلُّكَ على أن هذا الكون مخلوق على هيئة ولغاية ، بدليل أن الأشياء فى هذا الكون تنتظم انتظاماً حكيماً.

وإذا أردت أن تعرف دقة هذا الخلق ، فانظر إلى ما ليدك فيه دَخْلٌ ، وما ليس ليدك فيه دخل ؛ ستجد كل ما ليس ليدك فيه دخل على درجة هائلة من الاستقامة ، والحق سبحانه يقول:

﴿ لا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ[1] يَسْبَحُونَ (٤٠) ﴾ [يس]

---

(١) الفَلَك: المدار يسبح فيه الجِرْم السماوى. والجمع: أفلاك. [المعجم الوسيط: مادة (ف ل ك)].

أما ما ليدك فيه دخل ، فاختيارنا حين يتدخل فهو قد يفسد الأشياء .

وهكذا رأينا أن الآيات الكونية تلفت إلى وجود الخالق سبحانه وهى مناط الاستدلال العقلى على وجود الإله ، أو أن الآيات هى الأمور العجيبة التى جاءت على أيدى الرسل - عليهم السلام - لتقنع الناس بأنهم صادقون فى البلاغ عن الله سبحانه وتعالى .

ثم هناك آيات القرآن الكريم التى يقول فيها الحق سبحانه :

﴿ هُوَ الَّذِى أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ .. (٧) ﴾ [آل عمران]

وهى الآيات التى تحمل المنهج .

وحين يقول الحق سبحانه :

﴿ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا .. (٧٣) ﴾ [يونس]

فهو يعلّمنا أنه أغرق من كذّبوا بالآيات الكونية ولم يلتفتوا إلى بديع صنعه سبحانه ، وحكمة تكوين هذه الآيات ، وترتيبها ورتابتها [1] ، وهم أيضاً كذّبوا الآيات المعجزات ، وكذلك كذّبوا بآيات الأحكام التى جاءت بها رسلهم .

ويُنهى الحق سبحانه وتعالى هذه الآية بقوله :

﴿ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ [2] (٧٣) ﴾ [يونس]

والخطاب هنا لكل من يتأتّى منه النظر ، وأولُهم سيدنا محمد ﷺ ،

---

(١) رتابتها : أى : سيرها على نظام واحد لا يتخلف ، يقول الحق سبحانه : ﴿ لا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٤٠) ﴾ [يس] .

(٢) عاقبة : عقاب وجزاء ونهاية . المنذرين : اسم مفعول يشير إلى من وقع عليهم الإنذار ، وهم قوم نوح الذين أنذرهم نبيهم ، فلم يؤمنوا ؛ فاستحقوا العقاب والعذاب .

وهو أول مُخاطَب بالقرآن.

وأنت حين تقول: «انظر» ؛ فأنت تُلْفت إلى أمر حسِّي ، إن وجَّهت نظرك نحوه جاء الإشعاع من المنظور إليه ، ليرسم أبعاد الشيء ؛ فتراه.

والكلام هنا عن أمور غائبة ، فهى أحداث حسية وقعت مرة واحدة ثم صارت خبراً ، فإن أخبرك بها مخبر فيكون تصديقك بها على مقدار الثقة فيه.

فمن رأى عصا موسى - عليه السلام - وهى تلقف الحبال التى ألقاها السحرة ؛ آمن بها ، مثلما آمن من شاهد النار عاجزة عن إحراق إبراهيم عليه السلام ، ومن رأى عيسى عليه السلام وهو يُشفى الأكْمَهَ والأبْرص [1] ويُحيى الموتى بإذن الله تعالى ، فقد آمن بما رأى ، أما من لم ير تلك المعجزات فإيمانه يتوقف على قدر توثيقه لمن أخبر ، فإن كان المخبر بذلك هو الله سبحانه وفى القرآن الكريم فإيماننا بتلك المعجزات هو أمر حتمى ؛ لأننا آمنا بصدق المبلِّغ عن الله تعالى.

ونحن نفهم أن الرسالات السابقة على رسالة محمد ﷺ ، كانت رسالات موقوتة زماناً ومكاناً ، لكن الإسلام جاء لينتظم الناس الموجَّه إليهم منذ أن أرسل الله رسوله محمداً ﷺ إلى أن تقوم الساعة.

لذلك جاء القرآن آيات باقيات إلى أن تقوم الساعة ، وهذا هو السبب فى أن القرآن قد جاء معجزة عقلية دائمة يستطيع كل من يدعو إلى منهج رسول الله ﷺ أن يقول: محمد رسول من عند الله تعالى ، وتلك هى معجزته.

وساعة يقول الحق سبحانه: ﴿فَانظُرْ﴾ فمثلها مثل قول الحق سبحانه

---

(١) الكمه: العَمَى الذى يولد به الإنسان. أما البَرَص فهو: مرض جلدى عبارة عن بقع بيضاء تكون فى الجسد. انظر اللسان.

وتعالى لرسوله ﷺ:

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ[1] (١) ﴾ [الفيل]

وحادثة الفيل قد حدثت في العام الذي ولد فيه رسول الله ﷺ ، وبطبيعة الحال فسيدنا رسول الله ﷺ لم ير حادثة الفيل ، ولكن الذين رأوها هم الذين كانوا يعيشون وقتها ، وهذا ما يلفتنا إلى فارق الأداء ، فعيونك قد ترى أمراً ، وأذنك قد تسمع خبراً ، ولكن من الجائز أن تخدعك حواسك ، أما الخبر القادم من الله تعالى ، وإن كان غائباً عنك الآن وغير مسموع لك فخذه على أنه أقوى من رؤية العين.

ولقائل أن يقول: لماذا لم يقل الحق : «ألم تعلم» وجاء بالقول:

﴿أَلَمْ تَرَ..(١)﴾ ؟ [الفيل]

وأقول: ليدلنا الله سبحانه على أن العلم المأخوذ من الله تعالى عن أمر غيبي عليك أن تتلقاه بالقبول أكثر من تلقيك لرأى العين.

إذن: ﴿فَانظُرْ﴾ تعنى: اعلمْ الأمر وكأنه مُجسَّم أمامك ؛ لأنك مؤمن بالله تعالى وكأنك تراه ، ومُبلِّغك عن الله سبحانه هو رسول تؤمن برسالته ، وكل خبر قادم من الله تعالى ورسوله ﷺ لا يمكن أن يتسرب إليه الشك ، ولكن الشك لا يمكن أن يتسرب إلى المخبر الصادق أبداً.

ولقائل أن يقول: ولماذا لم يقل الحق: «فانظر كيف كان عاقبة الكافرين» بدلاً من قول الحق سبحانه:

﴿ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ (٧٣) ﴾ ؟ [يونس]

(١) أصحاب الفيل، هم جيش «أبرهة» الحبشى حين قدموا لهدم الكعبة، فمزقهم الله شر ممزق وأرسل عليهم طيوراً من السماء ترميهم بحجارة من سجيل فجعلهم الله كعصف مأكول. ووافق ذلك قبل مولد النبي ﷺ بخمس وخمسين ليلة ، فهو لم ير الحادث بعينيه، ولكن إخبار الله له أمر لا يحتمل إلا الصدق، فكأنه قد رآه بعينيه فعلاً.

وهنا نقول:

إن الحق سبحانه وتعالى قد بيَّن أنه لن يعذِّب قبل أن يُنْذِر [1]، فهو قد أنذر أولاً، ولم يأخذ القوم على جهلهم.

«فانظر» - كما نعلم - هي خطاب لرسول الله ﷺ، وخطاب رسول الله ﷺ يشمل أمته أيضاً، وجاء هذا الخبر تسلية لرسول الله ﷺ، فإن صادف من قومك يا محمد ما صادف قوم نوح - عليه السلام - فاعلمْ أن عاقبتهم ستكون كعاقبة قوم نوح.

وفي هذا تحذير وتخويف للمناوئين لرسول الله ﷺ.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ [2] فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ [3] عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾﴾

---

(١) يقول الحق سبحانه: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾ [فاطر] ويقول: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾ [الإسراء] النذير والإنذار وجمعه نذر، قال تعالى: ﴿مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ.. ﴿١٩﴾﴾ [المائدة].

والنذير هنا: هو الرسول المنذر بالعذاب. والنذر اسم مصدر بمعنى الإنذار كقوله تعالى: ﴿فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا ﴿٥﴾ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ﴿٦﴾﴾ [المرسلات] وقوله: ﴿.. وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [يونس] يحتمل أنها الإنذارات. أو المنذرون من الرسل جمع نذير، وقوله: ﴿وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ.. ﴿٢١﴾﴾ [الأحقاف]، والمراد بالنذر هم الرسل المنذرون.

(٢) بالبينات: أي: بالحجج والأدلة والبراهين على صدق ما جاءوهم به. [ذكره ابن كثير في تفسيره (٢/٤٢٦)].

(٣) الطبع: هو الختم على القلب، ولكنه لا يُمحَى ولا يُفك أبداً. أما الختم فقد يفك، وقد تكون له مدة معلومة، وقد يقبل مع التوبة الخالصة. وبكلا الأمرين ورد القرآن: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ ﴿١٠٨﴾﴾ [النحل]. وقال سبحانه: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ.. ﴿٧﴾﴾ [البقرة].

وكلمة «بعث» هنا تستحق التأمل ، فالبعث إنما يكون لشيء كان موجوداً ثم انتهى ، فيبعثه الله تعالى.

وكلمة ﴿بَعَثْنَا﴾ هذه تلفتنا إلى أن الحق سبحانه أول ما خلق الخلق أعطى المنهج لآدم عليه السلام ، وأبلغه آدم لأبنائه ، وكل طمس أو تغيير من البشر للمنهج (١) هو إماتة للمنهج.

وحين يرسل الحق سبحانه رسولاً ، فهو لا ينشيء منهجاً ، بل يبعث ما كان موجوداً ، ليذكِّر الفطرة السليمة.

وهذا هو الفرق بين أثر كلمة «البعث» عن كلمة «الإرسال» ، فكلمة البعث تشعرك بوجود شيء ، ثم انتهاء الشيء ، ثم بعث ذلك الشيء من جديد ، ومثله مثل البعث في يوم القيامة ، فالبشر كانوا يعيشون وسيظلون في تناسل وحياة وموت إلى يوم البعث ، ثم يموت كل الخلق ليبعثوا للحساب.

ولم يكن من المعقول أن يخلق الله سبحانه البشر ، ويجعل لهم الخلافة في الأرض ، ثم يتركهم دون منهج ؛ وما دامت الغفلة قد طرأت عليهم من بعد آدم - عليه السلام - جاء البعث للمنهج على ألسنة الرسل (٢) المبلِّغين عن الله تعالى.

---

(١) نَهَجَ الطريق من باب فتح ، نهجاً : سلكه . ونهج الطريق له : أوضحه ، والنهج والمنهج والمنهاج : الطريق الواضح والمذهب حسياً ومعنوياً ، قال تعالى : ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا .. ﴿٤٨﴾﴾ [المائدة] أي : مذهباً أو طريقة أو ديناً ، فهو هنا معنوي.

(٢) الرسالة : اسم لما يُرسل منقولة عن المصدر ، ورسالة الرسول ما أمر بتبليغه عن الله للناس ، ودعوته الناس إلى ما أوحى إليه . والرسول : المرسل . والرسول مصدر بمعنى الرسالة ، وإذا وصف بالمصدر فلا يؤنث ولا يثنى ولا يجمع . قال الزمخشري : الرسول يكون بمعنى المرسل ، وبمعنى الرسالة فجعله القرآن في سورة طه بمعنى المرسل ، فلم يكن بُدٌّ من تثنيته . يقول الحق : ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ ..﴿٤٧﴾﴾ [طه] أما في آية الشعراء فبمعنى الرسالة ، فجازت التسوية فيه إذا وصف به بين المفرد والمثنى ، فلهذا قال : ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾﴾ [الشعراء] وأرسل تأتي لمجرد البعث والإطلاق مثل : ﴿فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ .. ﴿١٠٥﴾﴾ [الأعراف] (الزمخشري - بتصرف).

وبعد نوح - عليه السلام - بعث الحق سبحانه رسلاً ، وهنا يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِ ..(٧٤) ﴾ [يونس]

أى : من بعد نوح ، فمسألة نوح - عليه السلام - هنا تعنى مقدمة الرَّكْب الرسالى ؛ لأن نوحاً عليه السلام قد قالوا عنه إنه رسول عامٌ للناس جميعاً أيضاً ، مثله مثل محمد ﷺ ، وهو لم يُبعث رسولاً عامّاً للناس جميعاً ، بل كان صعوده إلى السفينة هو الذى جعله رسولاً لكل الناس ؛ لأن سكان الأرض أيامها كانوا قلّة .

والحق سبحانه قد أخذ الكافرين بذنبهم وأنجى المؤمنين من الطوفان ، وكان الناس قسمين : مؤمنين ، وكافرين ، وقد صعد المؤمنون إلى السفينة ، وأغرق الحق سبحانه الكافرين .

وهكذا صار نوح - عليه السلام - رسولاً عامّاً بخصوصية من بقوا وهم المرسَل إليهم بخصوصية الزمان والمكان[1] .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِ رُسُلاً إِلَىٰ قَوْمِهِمْ ..(٧٤) ﴾ [يونس]

فهل قَصَّ الله تعالى كل أخبار الرسل عليهم السلام؟ لا ؛ لأنه سبحانه وتعالى هو القائل :

﴿ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ..(٧٨) ﴾ [غافر]

---

(١) أما رسالة محمد ﷺ فهى لعامة الزمان والمكان ، وهذا مما خصَّ به الله رسوله ﷺ وأمته ، ويدل عليه حديث رسول الله ﷺ : « أعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلى : نصرت بالرعب مسيرة شهر ، وجعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً ، فأيما رجل من أمتى أدركته الصلاة فَلْيُصلِّ ، وأحلت لى المغانم ولم تحل لأحد قبلى ، وأعطيت الشفاعة ، وكان النبى يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة » أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٣٥) ومسلم (٥٢١) من حديث جابر بن عبد الله .

وجاء الحق عز وجل بقصص أولى العزم منهم [1] ، مثلما قال سبحانه :

﴿ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ [2] (١٤٧) ﴾ [الصافات]

فمن أرسله الله تعالى إلى من هم أقل من مائة ألف ، فقد لا يأتى ذكره ، ونحن نعلم أن الرسول إنما كان يأتى للأمة المنعزلة ؛ لأن العالم كان على طريقة الانعزال ، فنحن مثلاً منذ ألف عام لم نكن نعلم بوجود قارة أمريكا ، بل ولم نعلم كل القارات والبلاد إلا بعد المسح الجوى فى العصر الحديث ، وقد توجد مناطق فى العالم نعرفها كصورة ولا نعرفها كواقع .

ونحن نعلم أن ذرية آدم - عليه السلام - كانت تعيش على الأرض ، ثم انساحت [3] فى الأرض ؛ لأن الأقوات التى كانت تكفى ذرية آدم على عهده ، لم تعد تكفى بعدما اتسعت الذرية ، فضاق الرزق فى رقعة الأرض التى كانوا عليها ، وانساح بعضهم إلى بقية الأرض .

والحق سبحانه هو القائل :

﴿ وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً [4] .. (١٠٠) ﴾ [النساء]

---

(١) أولو العزم من الرسل هم : محمد ﷺ ، وإبراهيم ، ونوح ، وموسى ، وعيسى عليهم السلام . قال تعالى : ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ .. (٣٥) ﴾ [الأحقاف] .

(٢) هو يونس - عليه السلام - أنجاه الله سبحانه وتعالى من بطن الحوت ثم أرسله إلى قومه وهم أهل « نينوى » بجهة الموصل ، وكان عددهم مائة ألف أو يزيد على المائة ألف - على اختلاف بين المفسرين . [تفسير الجلالين ص ٣٩٦] و[تفسير ابن كثير (٤/ ٢٢)] ، و[صفوة التفاسير للصابونى (٣/ ٢٤)] .. بتصرف .

(٣) انساح : من السياحة وهى الذهاب فى الأرض ، أو الهجرة من مكان إلى مكان . [لسان العرب : مادة (س ى ح)] .

(٤) مراغماً كثيراً : المراغمة الهجران والتباعد . والمراد : أنه يجد أماكن كثيرة تصلح لأن يهاجر إليها ليعيش فيها . [اللسان - بتصرف] .
وسعة : أى : بعيداً عن تضييق المشركين ، وقيل : سعة ، أى : كثرة فى الرزق . [مختصر تفسير الطبرى] بتصرف .

وهكذا انتقل بعض من ذرية آدم - عليه السلام - إلى مواقع الغيث [1]، فالهجرة تكون إلى مواقع المياه ؛ لأنها أصل الحياة.

ويلاحظ مؤرِّخو الحضارات أن بعض الحضارات نشأت على جوانب الأنهار والوديان ، أما البداوة فكانت تتفرق فى الصحارى ، مثلهم مثل العرب ، وكانوا فى الأصل يسكنون عند سد مأرب ، وبعد أن تهدم السد وأغرق الأرض ، خاف الناس من الفيضان ؛ لأن العَدُوَّين اللذين لم يقدر عليهما البشر هما النار والماء.

وحين رأى الناس اندفاع الماء ذهبوا إلى الصحارى ، وحفروا الآبار التى أخذوا منها الماء على قَدْر حاجتهم ؛ لأنهم عرفوا أنهم ليسوا فى قوة المواجهة مع الماء.

وهكذا صارت الانعزالات بين القبائل العربية ، ومثلها كانت فى بقية الأرض ؛ ولذلك اختلفت الداءات باختلاف الأمم ؛ ولذلك بعث الحق سبحانه إلى كل أمة نذيراً ، وهو سبحانه القائل :

﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلا فِيهَا نَذِيرٌ [2] ..(٢٤)﴾ [فاطر]

وقصَّ علينا الله سبحانه قصص بعضهم ، ولم يقصص قصص البعض الآخر.

يقول الحق سبحانه :

---

(١) الغيث : المطر .

(٢) إن : نافية بمعنى (ما) . أى : ما من أمة إلا أرسل الله إليهم من ينذرهم . خلا : مضى وسبق . قال تعالى : ﴿كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَا أُمَمٌ .. (٣٠)﴾ [الرعد] .
نذير : صيغة مبالغة من الإنذار ، أى : كثير الإنذار لهم بعذاب الله إذا لم يؤمنوا به . قال تعالى : ﴿قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ أَن تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ ..(١٩)﴾ [المائدة] .

﴿مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ..(٧٨)﴾ [غافر]

وهنا يقول الحق سبحانه:

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رُسُلاً إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ ..(٧٤)﴾ [يونس]

فهل هؤلاء هم الرسل الذين لم يذكرهم الله ؟

لا ؛ لأن الحق سبحانه أرسل بعد ذلك هوداً إلى قوم عاد ، وصالحاً إلى ثمود ، وشعيباً إلى مدين ، ولم يأت بذكر هؤلاء هنا ، بل جاء بعد نوح - عليه السلام - بخبر موسى عليه السلام ، وكأنه شاء سبحانه هنا أن يأتي لنا بخبر عيون الرسالات [1].

وما دام الحق سبحانه قد أرسل رسلاً إلى قوم ، فكل قوم كان لهم رسول ، وكل رسول بعثه الله تعالى إلى قومه.

وكلمة «قوم» [2] في الآية جمع مضاف ، والرسل جمع ، ومقابلة الجمع بالجمع تقتضي القسمة آحاداً ، مثلما نقول: هَيَّا اركبوا سياراتكم ، والخطاب لكم جميعاً ، ويعني: أن يركب كل واحد منكم سيارته.

وجاء كل رسول إلى قومه بالبينات ، أي: بالآيات الواضحات الدالة على صدق بلاغهم عن الله تعالى.

ثم يقول الحق سبحانه في نفس الآية:

---

(١) عيون الرسالات: أكبرها وأهمها ذكرها تفصيلاً ، وذكر غيرها إجمالاً.

(٢) القوم: جماعة الرجال ليس معهم نساء. قال تعالى: ﴿لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ ..(١١)﴾ [الحجرات] ، ثم قال: ﴿وَلا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ ..(١١)﴾ [الحجرات] فدلَّ على أن المقصود بالقوم هنا الرجال فقط ، ويستعمل لفظ القوم فيشمل الأمة كلها رجالاً ونساء ، مثل قوم نوح وقوم إبراهيم. [القاموس القويم] وانظر [لسان العرب مادة: قوم].

﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِن قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾﴾ [يونس]

أى: أن الناس جميعهم لو آمنوا لانقطع الموكب الرسالى، فموكب إيمان كل البشر لم يستمر، بل جاءت الغفلة [1]، وطبع الله تعالى على قلوب المعتدين. والطبع - كما نعلم - هو الختم.

ومعنى ذلك أن القلب المختوم لا يُخرج ما بداخله، ولا يُدخل إليه ما هو خارجه؛ فما دام البعض قد عشق الكفر فقد طبع الله سبحانه على هذه القلوب ألاّ يدخلها إيمان، ولا يخرج منها الكفر، والطبع هنا منسوب لله تعالى.

وبعض الذين يتلمَّسون ثغرات فى منهج الله تعالى يقولون: إن سبب كفرهم هو أن الله هو الذى طبع على قلوبهم.

ونقول: التفتوا إلى أنه سبحانه بيَّن أنه قد طبع على قلوب المعتدين، فالاعتداء قد وقع منهم أولاً، ومعنى الاعتداء أنهم لم ينظروا فى آيات الله تعالى، وكفروا بما نزل إليهم من منهج، فهم أصحاب السبب فى الطبع على القلوب بالاعتداء والإعراض.

وجاء الطبع لتصميمهم على ما عشقوه وألفوه، والحق سبحانه وتعالى هو القائل فى الحديث القدسى:

«أنا أغنى الشركاء عن الشرك» [2].

ولله المثل الأعلى، فأنت تقول لمن يَسْدِر [3] فى غَيِّه: ما دمت تعشق ذلك الأمر فاشبع به.

---

(١) الغفلة: سهو يعترى الإنسان من قلة التحفظ وعدم اليقظة، قال تعالى: ﴿لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا .. ﴿٢٢﴾﴾ [ق]، أى: غافلاً عن إدراك القيامة وغافلاً عن أحداث ما بعد الموت. [القاموس القويم]

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٩٨٥) وابن ماجه فى سننه (٤٢٠٢) عن أبى هريرة رضى الله عنه.

(٣) السادر فى غيه: الممعن فى ضلاله المستمر عليه لا يهتم لشىء ولا يبالى ما صنع. [اللسان مادة: سدر].

ومَثَل هؤلاء الذين طبع الله سبحانه وتعالى على قلوبهم ، مثل الذين كذَّبوا من قبل وكانوا معتدين .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ(١) بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ٧٥ ﴾

وكل من موسى وهارون - عليهما السلام - رسول ، وقد أخذ البعث لهما مراحل ، والأصل فيها أن الله تعالى قال لموسى - عليه السلام :

﴿ وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ ١٣ ﴾ [طه]

وقال الحق سبحانه وتعالى لموسى - عليه السلام :

﴿ اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ٤٣ ﴾ [طه]

ثم سأل موسى - عليه السلام - ربه سبحانه وتعالى أن يشدَّ عَضُدَه بأخيه ، فقال الحق سبحانه وتعالى :

﴿ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ ٣٦ ﴾ [طه]

لأن موسى - عليه السلام - أراد أن يفقه قوله ، وقد رجى موسى ربه سبحانه وتعالى بقوله :

﴿ وَاحْلُلْ عُقْدَةً(٢) مِّن لِّسَانِي ٢٧ يَفْقَهُوا قَوْلِي ٢٨ ﴾ [طه]

---

(١) ملئه : قومه . وقيل : هم أشراف القوم ووجوههم ورؤساؤهم الذين يُرجع إلى قولهم . [اللسان ، مادة : ملأ] .

(٢) العقدة : تطلق على رتة اللسان وصعوبة النطق ، قال تعالى حاكياً عن موسى عليه السلام : ﴿ وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ٢٧ يَفْقَهُوا قَوْلِي ٢٨ ﴾ [طه] .

وبعد ذلك جاء تكليف هارون بالرسالة مع موسى عليه السلام.

وقال الحق سبحانه: ﴿اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ[1] (٢٤)﴾ [طه]

فالأصل - إذن - كانت رسالة موسى - عليه السلام - ثم ضم الله سبحانه هارون إلى موسى إجابة لسؤال موسى، والدليل على ذلك أن الآيات كلها المبعوثة في تلك الرسالة كانت بيد موسى، وحين يكون موسى هو الرسول، وينضم إليه هارون، لا بد - إذن- أن يصبح هارون رسولاً.

ولذلك نجد القرآن معبرًا عن هذا: ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ .. (٤٧)﴾ [طه]

أي: أنهما رسولان من الله.

وفي آية أخرى يقول الحق سبحانه:

﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦)﴾ [الشعراء]

فهما الاثنان مبعوثان في مهمة واحدة، وليس لكل منهما رسالة منفصلة، بل رسالتهما واحدة لم تتعدد، وإن تعدد المرسل فكانا موسى وهارون.

ومثال ذلك - ولله المثل الأعلى - حين يوفد ملك أو رئيس وفداً إلى ملك آخر، فيقولون: نحن رسل الملك فلان.

وفي رسالة موسى وهارون نجد الأمر البارز في إلقاء الآيات كان لموسى. ولكن هارون له أيضاً أصالة رسالية؛ لذلك قال الحق سبحانه:

﴿إِنَّا رَسُولَا .. (٤٧)﴾ [طه]

(١) طغى: تجاوز الحد. ومنه قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ (١١)﴾ [الفجر] أي: ظلموا وتجاوزوا الحد في العصيان. وقال تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ (١١)﴾ [الحاقة].

ذلك أن فرعون كان متعالياً سَمْجاً [١] رَذْل [٢] الخُلُق ، فإن تكلم هارون ليشد أزر [٣] أخيه ، فقد يقول الفرعون : وما دخلك أنت؟

ولكن حين يدخل عليه الاثنان ، ويعلنان أنهما رسولان ، فإن رد فرعون هارون ، فكأنه يرد موسى أيضاً .

أقول ذلك حتى نغلق الباب على من يريد أن يتورك [٤] القرآن متسائلاً : ما معنى أن يقول القرآن مرة «رسول» ومرة «رسولا» ؟

وفي هذا ردٌّ كافٍ على هؤلاء المتوركين.

ويقول الحق سبحانه هنا في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها :

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُوسَىٰ وَهَارُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا ..(٧٥) ﴾ [يونس]

والملأ : هم أشراف القوم ، ووجوهه وأعيانه والمقرَّبون من صاحب السيادة العليا ، ويقال لهم : «ملأ» ؛ لأنهم هم الذين يملأون العيون ، أي : لا ترى العيون غيرهم .

وفرعون - كما نعلم - لم يصبح فرعوناً إلا بالملأ ؛ لأنهم هم الذين نصَّبوه عليهم ، وكان «هامان» مثلاً يدعم فكرة الفرعون ، وكان الكهنة يؤكدون أن الفرعون إله .

---

(١) سَمُجَ الشيء : قَبُحَ . والسَّمْجُ والسَّميج : الذي لا خير فيه [لسان العرب : مادة (س م ج)- بتصرف] .
(٢) الرَّذْل والرَّذيل : الدون من الناس ، وقيل : هو الخسيس . وقيل : هو الرديء من كل شيء . [لسان العرب : مادة (ر ذ ل)] .
(٣) الأَزْر : القوة والشدة ، وأَزَرَه وآزره : أعانه وساعده . [لسان العرب : مادة (أزر)] .
(٤) التوريك : إضافة الذنب أو النقص إلى الشيء ، وحمله عليه على غير الحقيقة ، وتحمل معنى إسقاط عيبه على غيره [انظر : لسان العرب - مادة : ورك] والمراد أنهم يُحمِّلون القرآن تناقضاتهم .

ولكل فرعون ملأ يصنعونه ، والمثل الشعبى فى مصر يقول: «قالوا لفرعون من فَرْعَنك ، قال : لم أجد أحداً يردّنى».

أى: أنه لم يجد أحداً يقول له: تَعقَّلْ . ولو وجد من يقول له ذلك لما تفرعن.

والآيات [1] التى بعث بها الله سبحانه إلى فرعون وملئه مع موسى وهارون من المعجزات الدالة على صدق نبوة موسى وهارون - عليهما السلام ، وفيها ما يُلْفت إلى صدق البلاغ عن الله .

أو أن الآيات هى المنهج الذى يثبت وجود الخالق الأعلى ، لكن فرعون وملأه استكبروا. والاستكبار: هو طلب الكبر ، مثلها مثل «استخرج» أى: طلب الإخراج ، ومثل «استفهم» أى: طلب الفهم. ومن يطلب الكبر إنما يفتعل ذلك ؛ لأنه يعلم أن مقوماته لا تعطيه هذا الكبر.

وينهى الحق سبحانه هذه الآية بقوله :

﴿ .. وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ (٧٥) ﴾ [يونس]

وشرُّ الإجرام هو ما يتعدى إلى النفس ، فقد يكون من المقبول أن يتعدى إجرام الإنسان إلى أعدائه ، أما أن يتعدى الإجرام إلى النفس فهذا أمر لا مندوحة [2] له ، وإجرام فرعون وملئه أودى بهم إلى جهنم خالدين مخلدين فيها ملعونين ، وفى عذاب عظيم ومهين.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

(١) قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَىٰ مَسْحُورًا (١٠١) ﴾ [الإسراء] والآيات التى أرسل بها موسى عليه السلام هى : العصا ، وإخراج يده بيضاء من غير سوء ، وسنىُّ الجدب ، والبحر ، والطوفان ، والجراد ، والقمل ، والضفادع ، والدم .

(٢) المندوحة : اتساع الأمر . والمراد: أن فعلهم هذا لا سبب معقول له ، ولا مبرر . [لسان العرب : مادة (ن د ح) بتصرف].

﴿ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ[1] مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ ﴾

وقد جاءهم الحق على لسان الرسل - عليهم السلام - وعلى كل إنسان أن يفهم أنه حين يستقبل من الرسول رسالة الحق ، فليفهم أنها رسالة ليست ذاتية الفكر من الرسول ، بل قد أرسله بها الله الخالق الأعلى سبحانه وتعالى .

ولذلك فالمتأبِّى[2] على الرسول ، لا يتأبَّى على مساوٍ له ؛ لأن الرسول هو مُبلِّغ عن الله تعالى ، والله سبحانه هو الذى بعثه ، ويجب على الإنسان أن يعرف قدر البلاغ القادم من الله الحق ؛ لأنه سبحانه هو الحق الأعلى ، وهو الذى خلق كل شىء بالحق : سماء مخلوقة بالحق ، وأرض مخلوقة بالحق ، وشمس تجرى بالحق ، ومطر ينزل بالحق ، وكل شىء ثابت ومتحرك بقوانين أرادها الحق سبحانه .

ولو سيطر الإنسان - دون منهج - على قوانين الكائنات لأفسدها ؛ لأن الفساد إنما يتأتى مما للإنسان دخل فيه ، ويدخل إليه بدون منهج الله .

والفساد إنما يجىء من ناحية اختيار الإنسان للبدائل التى لا يخضع فيها لمنهج الله تعالى .

ولذلك إن أردتم أن تستقيم حياتكم استقامة الكائنات العليا التى لا دخل لكم فيها ، فامتثلوا لمنهج الحق وميزانه ؛ لأنه سبحانه هو القائل :

---

(١) اللام فى كلمة «لسحر» للتوكيد . والمعنى : أن ما جئت به ما هو إلا سحر قوى ظاهر ، والسحر هو كل أمر يخفى سببه ، ويتخيَّل على غير حقيقته بالتمويه والخداع ، قال تعالى عن سحرة فرعون : ﴿ قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ ﴾ [طه] .

(٢) التأبى : الرفض والكراهية . [اللسان : مادة (أ ب ى)] .